

لمحة تاريخية عن

الخط العربي

الاسم / عبد المجيد عبد الله الرشيد

## لمحة تاريخ ولادة الخط

تنتمي مغامرة الخطوط إلى رحلة طويلة المدى عبر الأزمان كافة، والعوالم كافة، وعلى هامش احتضان المكتبة الوطنية الفرنسية لمائتين كتاب تحمل رموز الخطوط المتنوعة الثقافية، لقد قامت هذه المكتبة بجهد خلاق ومبدع يبرز التاريخ الطويل، البطيء، والمتكامل للخطوط القديمة والمعاصرة الغنية بالتضاد والتنوع والتساؤل الملفت للنظر.

لقد ظهرت بعض الخطوط التي تفتحت وازدهرت مع طول الزمن، ودامت ألوْف السنين، وبالوقت نفسه؛ لم تدم خطوط أخرى إلا زمن مخترعها. ورغم ذلك؛ لم تتوقف هذه الخطوط - رغم تبدلاتها - عن نسيج الروابط فيما بينها، وعن فكها طيلة هذه العصور. فأى شعب كان يتبنى خطأً من هذه الخطوط لا يلبث أن يعيد ويجدد هندسته مع تجميله أو زخرفته على طريقته، وبحسب أساطيره، فيخرجه بمطره جديد. وتجد أن الخط الهيروغليفي المصري لا يشابه طبيعة وأسس الخط المسماري، الذي - بدوره - لا يشابه الأحرف اليونانية واللاتينية، ولا الرموز والإشارات (**runiques**)، وحتى في بعض النماذج الموحدة، فإننا نجد - خلالها - بعض الاختلافات في الرموز أو الشعارات ضمن الأسلوب اللغوي أو المقولة التاريخية. وقد يكون بعيداً عن الأساس الروماني أو عن الكتابة الميروفية السريعة (**merovinginne**) أو الحرف الصغير الكارولنجي. يضاف إلى ذلك؛ أن أشكال الخطوط المنتهية كثيرة الالتواء والاعوجاج وفقاً لذاتية كاتبها. ولأجل التعرف على هذه الكثرة أو الانتقاص حيال هذه الرموز والأشكال الخطية، ضمن مناجاة مدوخة ، فقد رسم لها طريقان رئيسيان.

أولهما: القيام بتصفح الخطوط التي اتجهت إلى تصوير ما في العالم، والتي تقوم أساليب الكتابة الرمزية السائدة. ثانيهما: تصفح الخطوط التي تصور الكلام؛ أي الأساليب الأبجدية الحرفية والمقطعية اللفظية. وأيضاً؛ قد يكون الخط شيئاً آخر يختلف عن اعتباره لدى البعض كمجرد تسجيل خطاب أو حديث، فلا بد من متابعة آثاره كفن قائم بذاته،

يتناول - بالأفضلية - كل ما يمكن قراءته؛ لأن الخط يلعب دوراً مهماً مع جميع رموزه ودلائله ومصطلحاته، فهو يشوش على الرسائل البرقية، فيجعلها مطلسمه، صعبة القراءة، ويحث على تفسير كل مبهم، ويكشف المعنى المخفي، محافظاً - بشكل أو بآخر - على لغزه الجوهرى.

## أصل الخط العربى:

مشكلة الخط العربى تعد مشكلة معقدة فى التاريخ، تناولها كثير من المؤرخين بالرواية تارة وبالتخمين تارة أخرى، ويرجع ذلك إلى أن تاريخ الشعب العربى فى الجاهلية وعلاقاته آنذاك بالشعوب الأخرى من حوله لم تقيّد كتابة، وكل ما ورد منها نتف يسيرة جداً على مر الأجيال، أثبتتها الشعراء فى قصائدهم أو تناقلها الرواة محرّفة مزيدة على مر الأجيال إلى أن جاءت إلينا غامضة متناقضة.

وما دام موضوع هذا الكتاب يعنى بالدراسة الجمالية للخط العربى فإننا لن نخوض فى نقاض نظريات نشأة الكتابة لأنها - كما تقدم - لم تقم على أساس علمى سليم من ناحية، ولعدم وجود آثار كافية تكشف عن تطور تلك الكتاب من ناحية أخرى.

لكن الشيء الذى اتفق عليه الجميع أن الكتابة العربية فى تلك الفترة كانت بالغة الرداءة، فهى عندما انتقلت من الحيرة والأنبار إلى مكة انتقلت عن طريق عابرين لم يمكن المتعلمين من إجادته الإجادة التامة والى لا تتم إلا بتوارث الأجيال فانعكس ذلك على عدم نضوج الخط على الغرم من طول المدة التى وصل فيها إلى العرب على رأى بعض الأقوال.

وفى كل الأحوال إذا كان الخط وصل إلى العرب قبيل الإسلام، أو منذ زمن بعيد فإنه لم ينتشر إلا بين قلة قليلة، لأن العرب لم يكونوا فى حاجة للتدوين لبداهتهم وترحالهم الكثير، ولأنهم أيضاً «كانوا يعتمدون فى نقل الأخبار على الذاكرة، كما لم يستعملوا الكتابة بصورة واضحة إلا فى تسجيل النص القرآن». «

## كيف تطور الخط العربي:

إن الخط الذي انتهى للعرب على الرغم من تعدد أسمائه، فإن هذا التعدد لم يرجع إلى فوارق خصائص، بل كانت فوارق تجويد، حيث إن التسمية كانت تعني المكان الذي جاء منه الخط أكثر منها توضيح الصفة الفنية للخط على قلتها، ولم يكن للعرب من أسباب الاستقرار ما يدعوهم للابتكار في الخطوط التي وصلتهم، ولم تبلغ هذه الظاهرة لديهم مبلغ الظاهرة الفنية إلا عندما أصبحت للعرب دولة تعددت فيها مراكز الثقافة، ونافتت المراكز بعضها بعضها.

وصل للعرب قبل الإسلام نوعان من الخطوط النبطية المتطورة إلى العربية: نوع شديد الجفاف مولد من خطوط العبرانيين والتدمريين كما يبدو في نقش النمارة ونقش زبد ونقش حران، ونوع آخر لين يميل إلى الاستدارة، كان يستعمل في التدوين وتأديبة الأغراض اليومية التي تحتاج إلى سرعة ومطاوعة، وهذا ما يرجح أن كتاب الوحي والخلفاء الأوائل قد استخدموا هذا الخط اللين وتراسلوا به.

وعندما أنشئت الكوفة جودت الصورة اليابسة من الخط النبطي وأبدعت فيها حتى عرفت الخط باسمها وكتبت بهذه الصورة المصاحف، واستمر هذا الخط هو المفضل في كتابة المصحف زهاء أربعة قرون.

ولأن الخط الكوفي جاف فإن الإبداع فيه كان محدوداً، فتحول إلى الزخرفة المصاحبة للخط كما يبدو في الخط الطوفي الفاطمي... إن صورة كوفي المصاحف الحالية تكاد تكون هي نفسها التي كان عليها في ذلك الزمان البعيد، ولم يسعه أن يتطور، وتكون الكوفة بهذا أول مدرسة في تجويد الخط، والغريب أن معرفة الناس بأنواع الخط تتوقف عند الخط الكوفي.

أما الصورة اللينة للخط العربي فقد احتاجت لقرون طويلة حتى تستوي وتبلغ تمام النضوج، وهذه المدة الطويلة جداً هي التي أعطت للخط العربي أصالته وتفردته.

وتكمن عبقرية الفنان المسلم في أنه أخرج الخط العربي من «العدم»، فهناك حروف مرتفعة، وأخرى منخفضة، بعضها كبير والآخر صغير جداً، منها ما لا يسمح بعده بالاتصال، ومنها ما يجتم الانفصال بعده، هناك أكثر من صورة للحرف الواحد مع الاختلاف التام في الكتلة والامتداد الأفقي والرأسي بالإضافة على ليونة الحرف الكاملة.

ربما يكون هذا التنوع هو الفن بعينه، حيث كان المطلوب في البدء من الفنان الخطاط أن يلم هذا الشتات في شيء يمكن أن يصلح مجرد كتابة، لكن المعجزة أن يتحول «هذا الشيء» إلى فن هو من أعظم الفنون الإسلامية.

وعندما انتقلت الخلافة إلى دمشق بقيام الدولة الأموية انتقل مركز العناية بالخط إلى الشام ومن مجوديتها «قطب الحرر»، وبدأت أنواع الأقلام تزداد، وبدأت هندسة الحروف في العراق، وتنسب إلى رجلين هما الضحاك في خلافة السفاح وإسحق الذي عاش في خلافة المنصور ووصلت أنواع الخط إلى اثني عشر قلمًا.

وقبل أن ينقضي القرن الثالث الهجري كان «إبراهيم السجزي» قد أخذ من إسحق قلمه الجليل، وهو أكبر الأقلام التي كان يكتب بها، وولد من خطين جديدين هما خط الثلث وخط الثلثين... ولأن الخطوط في ذلك العهد لم تكن مختلفة اختلافًا كبيرًا فيغلب أن يكون الخط الجليل هو الخط الطومار أي أن خط الثلث يكون ١/ ٣ خط الطومار، وهذا هو السبب الرئيسي لتسمية الخط الثلث بهذا الاسم.

وانتهت جودة الخط بعد ذلك إلى الوزير العباسي «أبي علي محمد ابن مقله»، وكان أول من هندس الحروف بشكل شامل وضبطها على «النسبة الفاضلة» أي أن المقياس إذا زاد عليها أو نقص يكون الحرف خرج عن النسبة الفاضلة.

ومن يذكرون بتجويد الخط في أوائل القرن الخامس الهجري في العراق «أبو الحسن علي بن هلال المعروف بابن البواب». أما في أواخر السابع الهجري فبرز في تجويد الخط ياقوت بن عبدالله الرومي المشهور بالمستعصي والملقب بقبلة الكتاب.

ومنذ أواخر القرن الخامس الهجري بدأ الخط العربي في شمال الشام يتحول إلى صورتين رئيسيتين، إحداهما خط النسخ المتطور من خطوط النسخ، وحل محل الخط الكوفي في المصاحف، والصورة الأخرى هي صورة خط الثلث المتطورة من الطومار وحل محل الكوفي في الأغراض التذكارية والمساجد.

وأصبح الحديث عن الخط العربي منذ ذلك التاريخ إنما هو حديث عن خطي الثلث والنسخ فانحصر الجهد في تجويد هذين الخطين فكانت كل مدرسة تحسن في شكل الحروف، وفي طريقة اتصالها، وكانت مراكز تجويد الخط تبدأ من حيث انتهت سابقتها، وتراكت هذه الخبرات الطويلة حتى كانت نهاية الجودة، كمال الاستواء في المدرسة التركية في ظل الدولة العثمانية. والتي أخذت الثلث من مصر وأخذت النسخ من السلاجقة ثم أضافت خطاً ثالثاً بينهما هو خط الإجازة، وهو بحجم النسخ ولكن حروفه مشتركة بين النسخ والثلث.. ثم أضافت الرقعة والديواني.

ومن أشهر الخطاطين الأتراك: حمد الله بن الشيخ الأماصي وأحمد قرة حصارى، وعاشا في أواخر القرن التاسع وأوائل العاشر الهجري، ثم الحافظ عثمان، وقد برز في الخط النسخ.

وبلغ الخط الثلث قمته في القرن التاسع عشر الميلادي على أيدي مصطفى راقم، ومصطفى عزت، وشفيق ونظيف ومحمد شوقي وعبدالله الزهدي وأحمد العارف والشيخ محمد عبدالعزيز الرفاعي وغيرهم كثيرون، فأصبح إبداع هذه المدرسة هو النبراس الذي يهتدى به كل متعلم للخط.

وبعد ثورة أتاتورك التي عصفت بالحرف العربي في تركيا في بداية القرن العشرين، قدر لمصر أن تكون الحارسة لهذا الفن مرة أخرى، وحملت الأمانة كاملة منذ محمد مؤنس وحتى محمد عبدالقادر وما زالت.

أما الخط الفارسي فقد تطور داخل إيران واستوى فيها، ثم انتقل إلى تركيا في النصف الثاني من القرن السادس عشر على يد الخطاط «شاه قاسم التبريزي».

والخط الفارسي «كما نسميه نحن في المنطقة العربية» هو أصلاً خط النسستعليق فلقد كان الفارسيون يكتبون في السابق بخط متكسر يسمى «الشكسته» ثم تطور إلى خط التعليق ثم امتزج بالنسخ ليصبح النسستعليق.

وأشهر من كتب الخط الفارسي هو مير علي التبريزي للدرجة التي ينسب فيها إليه من كثرة ترويجه ونشره في العديد من الأقطار، على نحو ما ينسبون إلى الصدر الأعظم العثماني شهلا باشا التجول بقصد العمل على نشر الخط الديواني التركي.

## الخط الكوفي:

- كان لعرب الجنوب (اليمن) خطاً عربياً يسمى (المسند الحميري) نسبة إلى قبائل حمير.

- وكان لعرب شمال الجزيرة (حول جبال حوران بالشام) خطاً عربياً يسمى النبطي نسبة إلى الأنباط.

- وكان هناك أيضاً خطاً عربياً اسمه الحيري نسبة إلى أهل الحيرة، والأنباري نسبة إلى الأنبار.

- كذلك سمي الخط العربي بالخط المكي نسبة إلى مكة، والخط المدني نسبة إلى المدينة المنورة.

- وجاء الإسلام ليؤكد الحرف العربي ويبعث فيه الروح.

- وفي العصر الأموي بالشام كتب أجمل خط عربي في عصره داخل مسجد قبة الصخرة وكان قائماً على نسبة جميلة ومدروسة ومن المحتمل أن يكون قد

استفيد منه في تقرير الخط القاعدي (المبني على قاعدة) في العصر العباسي بعد الأمويين.

- وعندما كانت الكوفة مركزاً ثقافياً هاماً وأكثر مراكز تجويد الخط العربي شهرة فقد غلب اسم هذه المدينة على الخط العربي الذي أصبح يسمى بالخط الكوفي، وفي زمن العباسيين كان للخط العربي نصيب وافر من الارتقاء حيث تبارى الكتاب في إدخال التحسين على حروفه ليصبح فناً من الفنون الجميلة الرفيعة.

## خط الثلث:

اختلفت المراجع حول نسبة هذا النوع وتسميته وتاريخه وفيما يلي نبذة مختصرة حول خط الثلث:

ظهر شكل جديد للكتابة العربية - إبان الحكم الأموي - سمي (الجليل أو الطومار) والجليل هنا لا تدل على معناها فحسب . أي الكبير الجلي الواضح) بل تدل على صورة وسمات محددة للحرف العربي.

والطومار ليس خطأً مستقلاً بل هو مثل الجليل وهو أصغر في حجم حروفه (وكلمة الطومار نسبة إلى قطع تستخدم مثل ورق الكتابة).

- رجع ابتكار الجليل (والطومار الذي هو أصغر من الجليل في الحجم والمساحة كما ذكرنا) إبان خلافة بني أمية بالشام إلى رجلين هما الضحاك بن عجلان، وإسحاق بن حماد، ثم أخذ عنهم إبراهيم الشجري الذي طوره إلى قلم أسماه الثلثين ومنه قلم (أي خط) أسماه الثلث.

- تحسن هذا القلم (قلم الثلث) إبان الدولة العباسية وقد نسب وضع قواعده إلى الوزير ابن مقله على رأس الثلاثمائة للهجرة.



- وفي نهاية الخلافة العباسية انتقلت خلافة تجويد الخط إلى الدولة العثمانية حيث بلغ هذا النوع أرقى صورة له، ومن الذين لهم اليد الطولى في الارتقاء بهذا النوع الشيخ حمد الله الأماصي ومصطفى الراقم.

## خط النسخ:

سُمي بالنسخ لأن الكتاب كانوا ينسخون به القرآن الكريم والكتب النفيسة.

- يرجع البعض أصل النسخ وتاريخه إلى فجر الإسلام، ويقال إنه كان مستعملاً في دواوين الكتابة سنة ٤٠هـ، ويعتمد هذا التاريخ على ما شوهد في المخطوطات من حروف بين الخط الكوفي تشبه في سماها حروف خط النسخ.

- ولم يظهر خط النسخ كنوع مستقل كامل الأصول والقواعد وواضح المعالم والسمات إلا على رأس الثلاثمائة للهجرة على يد الوزير أبي علي محمد بن مقله وأخيه عبدالله حيث وضع الأول أصول هذا الخط تماً ما بدأه أسلافه.

- وقد جود خط النسخ على يد علي بن هلال المتوفي سنة ٤٢٣هـ، ويقاوت المستعصي الذي لا يوجد في المتقدمين مثلهما في جودة الخط، وحتى اليوم تعتبر كتاباتهم نموذجاً رائعاً للجمال والإتقان.

وبظهور خط النسخ حل مكان الكوفي والثلث في كتابة المصاحف الشريفة ونسخ الكتب وأصبح صورة الحروف الآلية التي تطبع بها الكتب والصحف إلى يومنا هذا، واستحسان خط النسخ لا يرجع إلى جماله فحسب بل لوضوح بيانه وسهولة قراءته وسرعة إدراك العين لجملة وكلماته وقابليته للمد الذي يتيح للكتاتيب إمكانية إلحاق التشكيل وحركات الضبط دون تراحم.

## خط الرقعة:

- يتميز بحروفه القصيرة وسهولة تعلمه وسرعة الكتابة به، فهو قلم الكتابة باليد وتخلو حروفه من علامات الضبط والتشكيل، وقد نشأ في تركيا، وكان قد ظهر في بعض المخطوطات منذ عام ٨٨٦هـ، إلا أن المعنيين بالخط وتطوره يرجعون صورته الحالية إلى اهتمام (ممتاز بك مصطفى) ١٢٢٥ - ١٢٨٧هـ الذي وضع لهذا النوع أصولاً وقواعداً وفق نسب جمالية خاصة.

- ثم جاء محمد عزت (١٢٥٧هـ - ١٣٢٠هـ) الذي زاد في تجويده وتحسينه. ومن المشاهير في هذا النوع الذي يؤخذ عنهم، محمد عزت، ومن عبده أحمد الحسيني أبو الروس، وعبدالرزاق سالم.

## المراجع:

- تاريخ الخط العربي وغيره من الخطوط العالمية، ترجمة: سالم سليمان العيسى، الأوائيل للنشر والتوزيع والخدمات الطباعية، سوريا دمشق، الطبعة الأولى ٢٠٠٤م.
- إيقاع الخط العربي، كيف تتذوق الخط العربي وتتعلمه؟ ثلث - فارسي - ديواني، عمر فحل، دار الطلائع.
- جماليات الخط العربي، منصور بن ناصر العواجي، دار طويق للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.